بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتمّ التسليم على خاتم الأنبياء وسيّد المرسلين قرّة عيوننا وحبيبنا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين أمّا بعد:

أرحّب بأحبابي الكرام، وأحيّيكم مرّة أخرى بتحيّة الإسلام: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فقد تحاورنا وتشاورنا في المرحلة الأولى من مراحل حياة سيّد البشر -صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم- ولا زلنا في المرحلة الأولى؛ لما فيها من محطّات وإضاءات كثيره جداً، ولكن خادمكم يقتصر على بعضها؛ وذلك من باب تحفيز عقولكم لأجل البحث والتنقيب، لا لأجل التفلسف، أو الترف الفكري، إنّما لإثراء الجانب التطبيقي في مجال الدعوة إلى الله تبارك وتعالى والاستعداد لها، والاستعداد لها يعني كيف أربّي نفسي على هدايات هذه المواقف؟ وكيف أحاسب نفسي حتّى أكون متلبّساً ومتشرّفاً فِعْلاً بهذه الصفات العظيمة الجليلة التي لا توصف، ولا تعطيها كلمة الجليلة والمهيبة حقّها، حتى لو جمعنا كلّ ما عندنا من المترادفات التي تدلّ على مرتبة ومكانة هذه الهدايات فهي لا تكفي في بيان حقيقتها.

إذن يا سعد الله أنت تجاهد نفسك وتحاسبها: ماذا استفدت من هذه الهدايات؟ وما الدرجة التي تعطيها لنفسك في هذا التدرّج وهذا التشرف وهذا التفاعل وهذا التميّز؟ هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى: الجانب التطبيقي ليس مقتصراً فقط في حدّ ذاتي أنا: على تربية نفسي، وتقوية روحانيتي وسلوكي، وإنّما الجانب

الثاني: ما هي المساحة التي استطعتُ أنْ أزرع فيها هذه الهدايات، أو أبثّ فيها من أنوار وبركات هذه الهدايات؟

إذن البحث والتنقيب والتأمّل والتدبّر ليس للترف الفكري - نعوذ بالله- فخادمكم حقيقة أحبّتي في الله -عزّ وجلّ- أنزعج جداً، ولا أحبّ أبداً، ولا نصف واحدٍ بالمئة أنْ يكون التأمّل والتنقيب والبحث لأجل الترف الفكري، وإنّما لإثراء الجانب التطبيقي بجناحيه:

**الجناح الذاتي النفسي:** الذي يخصّ المتحدّث والمتأمّل والمتفكّر نفسَه.

**والجناح الثاني:** الذي يخصّ الأمّة، كم عِشتُ في الأمّة؟ كم أثّرتُ؟ وكم بنيتُ؟ وكم زرعتُ؟

هذان الجناحان، فإذا كان بحثك لأجل هذا فتوكّل على الله -عزّ وجلّ- ابحث ونقّب.

ونحن قد وقفنا وقفات، وتشرّفنا بالحديث عن بعض محطّات سيرة الحبيب -صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم- في المرحلة الأولى، ونأتي الآن إلى بعض المحطات الأخرى التي لم نذكرها.

مثلاً عمله -صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم- في رعي الغنم، بعد ذلك عمله في التجارة، فهنا نحتاج إلى تأمّلٍ كثيرٍ وعميق؛ لأنّنا إلى الآن لم نصل إلى مرحلة الإعلان عن نبوّته - عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه أجمعين- وتكليفه بالتبليغ، إذن ماذا يشكّل العمل التجاري والعمل المادّي في حياة الدّاعية إلى الله عزّ وجلّ؟ لماذا لم يرضَ بأنْ يقول: أنا يتيم، وليس عندي أب ولا أم، وهناك مَنْ يتكفّلني، إذن أبقى مرتاحاً ألهو وألعب؟ لماذا آخذ غُنيمات وأصعد بها جبال مكّة

وبطحائها متحمّلاً المخاطر؟ ولابُدَّ أنْ نفكّر في أنّ ذلك العهد وذلك الوقت ليس مثل هذا الوقت، فالحياة كانت على سجيّتها (على فِطرتها) فلو خرجت قليلاً خارج البيت وربّما في البيت تجد الأفاعي معك، تجد عقارب في بيتك، وخارج البيت قد تجد من السباع الضواري التي لا ترحم. والسفر لم يكن بسيّارة مرسيدس! بل كان السفر فيه الكثير من المخاطر، ويمكن القول: إنّ المسافر أشبه بكونه بائعاً نفسه إلى أنْ يرجع، أيْ أنّ تسعين بالمئة، أو خمسة وثمانين، وربما ثمانين بالمئة على الأقلّ هو في خطر، حتّى لو كان عنده قافلة ولها حرّاس وإلى آخره، فهناك مخاطر طبيعية، فربّما يتعرّض لشيء من الطبيعة لا يستطيع أنْ يدفعه عن نفسه، أو مخاطر بشرية من الأشرار المتواجدين على الأرض، ومخاطر من الحيوانات -أجلّكم الله تعالى- المتواجدة، كالوحوش، والحشرات الضارّة إلى آخره، فلماذا كلّ هذا، وهناك مَنْ يتكفّلني، وأنا مرتاح، وجالس، لماذا أذهب لكلّ هذا؟

فهنا كأنّ ربّ العالمين عزّ شأنه يقول لنا: يا أيّها الإنسان، أنا زرعتُ في فطرتكَ تعمير الأرض، وتعمير الأرض بالمستوى الذي تتشارك فيه كلّ المخلوقات هو الجانب المادي، ففي هذا الجانب حتّى البقرة -أجلّكم الله تعالى- تعمّر الأرض، والنحلة تعمر الأرض، ولكنّهم يعمّرون في الجانب المادي، أي أنّ وقوفهم بين يدي الله تبارك في علاه، علاقتهم بالله جلّ وعلا هي علاقة فطرية لا نفهمها نحن، فكيف النحلة مثلاً في قوله تعالى:-

{وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ...} [سورة النحل: 68]

كيف أنّ الله سبحانه:-

{... سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ ...} [سورة الحج: 65]

كيف هذا التسخير؟ هذا الخلق؟ هذه الإرادة؟ نحن غير مكلفين أنْ نعرف كيفيتها، المهم أنْ نعلم أنّها تخدم الأرض، وأنّها مسخرة لتعمير الأرض.

فيا أيها الإنسان، أنت مخلوق من هذه المخلوقات، ينبغي عليك فطرةً أنْ تبدأ بتعمير الأرض، وكلّ إنسان يرى في نفسه خلوداً إلى الراحة المترفة المتخمة، الراحة التي تؤثّر وتجعله يقصّر في أداء هذا الواجب الفطري فليعلم أنّه مريض، هناك مرض، هناك عِلّة في فطرته، هناك عِلّة في تربيته؛ ولاحظت قبل فترة في بيت ابنتي -حفظها الله تعالى- قبل سنة تقريباً، كان عندها ولد صغير وبنت صغيرة -حفظهما الله تعالى- الولد -سبحان الله- عينه على الباب، فبمجرّد أنْ يُفتحَ الباب يركض يريد الخروج من البيت، أمّا البنت فهي دائماً تلهو عند الكنتور (خزانة الملابس) تبحث فيه، تذهب عند الطبّاخ، إلى المخزن، فقلت: سبحان الله، حقيقة هذا أثار انتباهةً عند خادمكم: بأنّ هذه (بنت) الله جلّ وعلا خلقها وجعل أكثر راحتها وسعادتها أنْ تكون مستقرة في بيتها، في مأواها، وذاك (ولد) الله سبحانه خلقه وجعل ارتياحه أكثر خارج البيت، فلذلك عَيْنُهُ على الباب، بمجرد أنْ يغفلوا عن الباب خرج، وهذا فيه من دوافع الفطرة السليمة، فنحن لا نضربه أو نمنعه، وإنّما نخرج معه ونراقبه ليخرج ويرى، ليتعلّم من الطبيعة ما شاء الله تبارك وتعالى له أنْ يتعلّم.

فخروجه صلوات ربي وسلامه عليه وآله وصحبه في هذه الوظائف، في هذه الواجبات، هو دليل على تمام فطرته ونقائها وصفائها، وبالتالي يكون لنا قدوة في هذا.

فيا سعد الله أنتَ ماذا عمِلتَ في حياتك؟ لديك قابلية (قدرة) أنْ تدير وظيفة، وفوقها عندك قابلية أنْ تعمل عملاً آخر، أعملتَ عملاً آخر أم لا؟ لابُدّ أنْ يحاسب نفسه، حتّى يرى ما هي مَدَياتِ التزامه بدوافع فطرته السليمة.

لأنّ الله عزّ وجلّ قدّر لي أنْ أُخْتَبَر وأُمْتَحَن بأنْ أكون خادِماً (مرشداً) لكم فهذا يوجب عليَّ أنْ أفتح لكم بعض الصفحات من تاريخ حياتي:-

أذكر أنّ والدي -رحمة الله تعالى عليه- كان متمكّناً في حياته، لأنّه إضافة لكونه عالماً وخطيباً وواعظاً، ما كان يكتفي بهذا، بل كان عنده محلّ لبيع القماش، وفتح منه فرعاً آخر للخياطة، فكان يخيط بعض الملابس، وقبل ذلك في الستّينيات حتّى بداية السبعينات كان والدي -رحمة الله تعالى عليه- عنده محلّ بالسعديّة (مدينة عراقية في محافظة ديالى) لبيع القماش، ويخيط بعضها، ولكوي الملابس، وأنا أتذكر الأوتي (المكواة) الذي يعمل بالفحم.

ففي ذلك الوقت لديه وظيفة وعمل مع الوظيفة، وكانت الحياة رخيصة، ولم تكن مثل هذه المصاريف التي نصرفها الآن، فنحن بالسعدية لم نكن بحاجة إلى سيّارة، فمصرف السيارة نضعه في (الجَيْبِ)، لم نكن بحاجة إلى ثلاجة، لأنّنا نتسوّق بشكل يومي، والوالدة رحمها الله تعالى تضعه في القدر (تطبخه) ونأكل ما قسمه الله جلّ جلاله لنا، وفي اليوم الثاني نخرج نكسب رزقنا وهكذا، فالحياة بسيطة جداً، لم يكن عندنا الموبايل ولا اللابتوب، وفاتورة الكهرباء، في كلّ غرفة كَلوب (مصباح الإنارة، يلفظ = Globe) واحد أو اثنان بقدرة (40 Watt)، لم تكن هذه المصاريف في الحياة الدنيا.

إذن والدي -رحمة الله تعالى عليه- كان متمكناً، عنده بيتان، ومكاسب أخرى.

ولستُ بصدد ذكر ماذا كان يملك، ولكن لكي أبيّن لكم، فكان يعمل في البستان بيده، يذهب للبستان، ويذهب إلى المسجد يؤمّ الناس، ثمّ يذهب إلى المحلّ، وأنا خادمكم صغير أذهب معه أنظر وأتعلّم، الساعة الثانية ظهراً -أذكر في أكثر من مرّة ذهبت معه - يذهب إلى البستان أحيانا في وقت متأخّر من الليل لأنّ دوره في السقي قد حان، فيجب أن يذهب فيَسدّ (يغلق) الماء عن بستان جيرانه، ويفتحه على بستانه، وأنا أذهب معه، وعمري خمس سنوات أو أقلّ من ذلك، وبعد ذلك نشأت وكبُرتُ، إلى أنْ تزوجتُ فتكفّلتُ بجميع مصاريف الزواج، لم أقبل أنْ يتكفّل والدي بذلك، كلّ ما قبِلتُه منه -رحمة الله تعالى عليه- أنّه أحضر لي هديّة زواج.

فاقتباساً من حياة الحبيب -صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم- لأنّ حياته كاملة مكمِّلة من حيث الفطرة، ومن حيث العقل، ومن حيث الروح، ومن كلّ الجوانب، حتّى قبل الإعلان عن نبوّته -عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام- وهذا يجعلنا -أحبابي- نفهم قوله عزّ شأنه بعد أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم:-

{... اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ...} [سورة الأنعام: 124]

فهذا من الإعداد:-

{... اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ...} [سورة الأنعام: 124]

ونحن نتحدث الآن عن الجوانب المادّية، وانظروا الآن ببركتكم وقع في قلبي معنى، وسامحوني لا أستطيع أنْ أقولها، ولكن الله سبحانه اختبرني لأنْ أكون خادماً لكم، وتعرفون ماذا أعني وأقصد، فببركتكم وقع في قلبي معنى: أنّه لأنّ

الله -عزّ وجلّ- يعلم أنّ سعد الله سيُبتلى بأنْ يكون مرشداً فبدأ يراعيه في هذا الجانب في بداية حياته أيضاً؛ لأنّ الوكيل له نسبة نيابية.

فكلّ واحد يراجع نفسه ويحاسبها، ولذلك أوجّه وأقول دائماً: مَنْ لديه عمل وعنده إمكانية أنْ يتوسّع أكثر فليتوكّل على الله عزّ وجلّ؛ فليس من ثقافة المسلمين -حسب ما أعتقد- قول مَنْ يقول: (الدنيا جيفة، وطلّابها كلاب) فيمكن أنْ نفهم هذا القول على مَنْ يتوجّه إلى الدنيا فقط وينسى كلّ شيء؛ لأنّ الكلام يحتمله، لكنّنا نبتعد عن هذا الكلام، نحن نقول: الدنيا مزرعة الآخرة، كما يقول الشرع الشريف، نقول ما قال الله جلّ في علاه:-

{... فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ...} [سورة الملك: 15]

ونقول ما قال سيّدنا رسول الله صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه ومَنْ والاه:-

(لاَ حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ) الإمام البخاري رحمه الله جلّ وعلا.

نحن نقول: هنالك مئات النصوص في الكتاب العزيز والسنّة المطهّرة، كلّها تُعنَى بالجانب المادّي للإنسان.

وأروي لكم قصة قرأتها قبل أربعين سنة في كتاب لا أذكر اسمه بالضبط، إمّا (المُنْقِذُ مِنَ الضَّلَالِ) للشيخ عبد الحليم محمود شيخ الأزهر-رحمه الله تعالى- أو كتاب آخر: وهي أنّه كان في بغداد شيخ مربٍّ، وكان عنده مريد، وهذا الشيخ عنده كوخ صغير تحت أحد الجسور التي فوق نهر دجلة، وأراد المريد أنْ يذهب في حاجة إلى مغرب الأرض، فأوصاه الشيخ بوصية، فقال له: أوْصِلْ سلامي

إلى أخي الشيخ فلان، فسافر التلميذ المريد وكان في باله أنْ يذهب ويبحث عن الشيخ تحت جسر، أو في مكان منقطع، أو ما شابه ذلك، حتّى يبلّغه تحية شيخه، فلمّا وصل بدأ يسأل، فقالوا له: إنّه يسكن في مكان كذا، في العاصمة، في مكان كذا، وهو أرقى حيّ في المنطقة (كما يقال إنّ أرقى منطقة في بغداد هي المنصور، في شارع الأميرات فهذه من المناطق الراقية في الثمانينات)، فلمّا أخبروه تعجّب؛ لأنّ هذا المكان راقٍ، فذهب إلى هذا المكان الراقي ووصل فسأل عن الشيخ، وقالوا له: إنّ الشيخ يعيش في أرقى حيٍّ في هذه المنطقة (كما أنّ حي المنصور راقٍ، ولكن شارع الأميرات أرقى وأميز ما فيه)، فتعجّب وقال في نفسه: هذا الشيخ لم يكتفِ أنْ يعيش في المنطقة الراقية، وإنّما يعيش في أرقى حيّ فيها، وأرقى شارع!!!

ذهب إلى المكان فإذا فيه قصور كثيرة، من أميزها قصر عالٍ، فظنّ أنّ قصر الشيخ يكون في بداية الشارع، ولكن لمّا سأل قالوا له: إنّ قصر الشيخ ذلك الذي هو أرقى قصر من بين هذه القصور، فتعجّب وظنّ أنّه متوهّم، أو أنّه أخطأ بالاسم! كيف يكون شيخاً وعنده قصر!؟ فالقصور للملوك والرؤساء، أراد أنْ ينصرف لكنّه قال في نفسه: إذا سألني شيخي هل بلّغتَ السلام ماذا أقول له؟ فذهب وصعد إلى القصر، وإذا فيه حرّاس، فأراد الرجوع ولكن الحرّاس استوقفوه وسألوه ماذا تفعل هنا؟ فقال: أنا أبحث عن الشيخ فلان، فقالوا: حيّاك الله، أهلاً وسهلاً بك، لقد وصلتَ، ولكن الشيخ عند الأمير! فتعجّب أكثر! فضيّفوه أحسن ضيافة ولكنّه بقي خائفًا قلقًا، وانتظر حتّى جاء الشيخ، وإذا له موكب مهيب، فسلّم عليه وحيّاه وضيّفه وأكرمه إلى آخره، وقبل أنْ يخرج من عنده حمّله الشيخ رسالة فقال: أوصِلْ سلامي لشيخك، وقل له: إلى متى تشتغل بالدنيا؟

إلى متى يبقى قلبك معلّقًا بالدّنيا؟ فانفجر في داخله متسائلاً: مَنْ يشتغل بالدنيا أنتَ أم شيخي المسكين الذي يعيش في كوخ تحت الجسر، والذي لا يملك إلا قطيفة ينام عليها، وإناء يشرب منه ماء، لكنّه لم يتكلّم لأنّه رأى شيئاً غير طبيعي.

فرجع إلى بغداد، والتقى بشيخه، فقال له الشيخ: ماذا قال لك الشيخ فلان، فقال: والله يا شيخي ماذا أقول لك؟ لا أدري ماذا أقول؟ فقال له شيخه: تكلّم ماذا قال لك؟ قال: إنّه يسلّم عليك ويعاتبك ويقول: إلى متى يبقى قلبك معلّقًا بالدنيا؟ فانفجر شيخه بالبكاء، وقال: واللهِ صَدَقَ، لقد فتح الله عزّ وجلّ له الدنيا وما تعلّق قلبه بها، فالدنيا لا ينبغي أنْ تكون في القلب، لأنّ القلب محرابُ الربّ سبحانه، وأمّا أنا فكما ترى، لا أملك إلا هاتين الحاجتين، وقلبي معلّق بهما.

هذه القصّة سواء أكانت صحيحة أم من نسج الخيال فلا يهمّني، فمنهج خادمكم أنّه ليس مهمّاً إذا كانت القصّة صحيحة أو غير صحيحة، ولا مَنْ قالها؟ ومَنْ هذا الشيخ وذاك الشيخ؟ كلّ ذلك غير مهمّ؛ لأنّ الله جلّ وعلا أدّبني في القرآن الكريم، فذكر لي قصصاً كثيرة ولم يذكر أسمائهم وتفاصيلهم؛ لأنّ هذا لا يعني شيئاً من جوهر القصّة، وإنّما المهم الحكمة، فالحكمة من هذه القصة هي: كأنّه يقول لنا: خذ واملك من الدنيا ما ملك قارون، لا مانع، ولكن وفْقَ الشروط الشرعية والضوابط الشرعية، خذه بحلال وأدِّ حقّ الله تعالى عليك فيه، وإيّاك إيّاك إيّاك أنْ تدخل الدنيا في قلبك؛ لأنّها إنْ دخلتْ فسد قلبك، أو تمرّض قلبك، ومن الناجي؟ كلّكم تحفظون الآية الكريمة:-

{يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} [سورة الشعراء: 88 – 89]

القلب المريض لا ينجو إلّا إذا تجلّى الله تعالى بالعفو، نسأل الله سبحانه أنْ يعفو عنّي وعنكم جميعاً.

إذن عمل الحبيب -صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم- في الرّعي فيه حِكَمٌ كثيرة، وأنا لا أذكرها كلّها، ولكن يعنينا أنْ نأخذ الأنفع والله جلّ وعلا أعلم، ثمّ نطلق العنان لعقولكم الفَطِنَة أنْ تتأمّل وتتدبّر، الأهمّ عند خادمكم أنّ الإسلام يريد منّا أنْ نكون أقوياء في كلّ جوانب حياتنا، ومنها الجانب المادّي، لماذا الله تعالى لمّا أخذ عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه أجمعين، الغنم لم يضرب على أذنه بالنوم؟ ينام وتذهب الغنم ثمّ يقول لهم: أنا لا أصلح لهذا الشيء؟ لماذا؟ ولماذا عندما أراد اللهو ضرب الله جلّ جلاله على أذنه ولم يسمع اللهو؟ هذا السؤال كبير يجب أنْ نسأله إلى أنفسنا؛ لأنّ الله عزّ وجلّ يريد أنْ يجعله مثالاً لمَنْ يريد تعمير الأرض، فماذا عمّرنا من الأرض؟

وقد وجّهتُ الخطباء قبل مُدّة أنْ يوجّهوا النّاس أنْ يعتمدوا على أنفسهم، والحمد لله لم يقصّروا بل وجّهوا النّاس، فوجهتُ بأنّه لماذا نشتري كلّ شيء من السوق؟ إذا كان عندك حديقة في البيت، أو أنت في منطقة زراعية، فازرعوا في بيوتكم وكلوا ممّا رزقهم الله تعالى، وخفّفوا على الأسواق من الازدحام، وخفّفوا على أنفسكم من أنْ تصِلوا إلى شرّ البقاع -نعوذ بالله تبارك وتعالى- لماذا هي شر البقاع؟ يجب أنْ نفهمها، لأنّ كثيراً من الناس يسقطون فيها، فلذلك الوقاية خير من العلاج؛ فإذا كنت تستطيع أنْ تعمّر الأرض وتحصّن نفسك، لا تذهب إلى شرّ البقاع، وإذا كان لا يمكن إلّا أنْ تذهب إلى السوق فاذهب ولكن انتبه إلى نفسك، على ألّا تقع في الشرّ.

فكم هو الفرق بين مَنْ يزرع في بيته ويحصد الطماطة والبامية، وزوجته حبيبته التي في البيت جزاها الله جلّ وعلا خيراً تعمل له أحسن الطعام، صار عنده وقت يصلّي الضحى على راحته، ويراجع حفظه من القرآن الكريم على راحته، وبين أنْ يذهب بسيّارته ليجلب كيلو طماطة، ونصف كيلو بامية، وقد خسر من وقته أربع ساعات، والله أعلم كم نظرة حرام نظر؟ وكم كلمة محرّمة تكلّم؟ وكم تصرّفٍ لا ينبغي له أنْ يتصرّفَ به تصرَّفَ؟ إذن كيف لا تكون شرّ البقاع إلى الله تعالى؟

إذنْ الرسول الأعظم -صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم- في موضوع الرّعي: كان متمكنًا أنْ يقوم به لوحده؛ لأنّ هذا لا يحتاج إلى رأس مال، أو إلى شريك، كلّ ما يحتاجه هو وجود أناس عندهم غنيمات يطلب منهم أنْ يرعاها لهم، ويعطوه الأجرة، وجزاهم الله تعالى خيراً، فكان يتوكّل على الله عزّ وجلّ يأخذ الغنيمات، ويستأنس في البراري والمراعي مع ربّه عزّ شأنه، لكنّ هذا لا يكفي، الإنسان بعد ذلك عنده التزامات، ينبغي أنْ يتزوّج، صاحب الفطرة السليمة لا يبقى من دون زواج، وربّما هذا الرّعي لا يكفي نفقات الزواج، ونفقات إنشاء أسرة، فبدأ يفكّر بشيء آخر، صارت فرصة للتجارة، ذهب للتجارة، وهناك فرق كبير بين التاجر والراعي، العمل بالتجارة بحاجة إلى رأس مال، يحتاج إلى تُجّار يعرفهم، وفي ذلك الوقت وفي كلّ وقت نحتاجهم، صحيح أنّ الله تبارك اسمه جعل لنا اليوم طبيعة الحياة الدنيا طبيعة إلكترونية، فكثير من التجّار الآن -وكما نحن متشرّفون بلقائكم بواسطة هذا الجهاز- يقومون بأعمالهم بالمراسلات والاتصالات، ولكن في زمن الحبيب عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه الميامين لم تكن هكذا؛ وهل الله عزّ وجلّ حماه في التجارة أو منعه من التجارة؟ لا، بل

شجّعه وحماه في التجارة، فذهب ودخل ورآه صاحب الدّير وصارت أخبار طيّبة ومباركة إلى آخره.

امشوا مع هدايات هذه القصص الجميلة، وهذه المحطات المضيئة المنيرة، وفق هذا الحال، وسترون في المرحلة الثالثة كيف جاءت النصوص تؤكّد على كلّ هذه السيرة الطيّبة المباركة، كلّها تؤكّد على هذه السيرة، فالذي ضرب على أذنه في الواقعة هناك، تبيّن أنّ هذه الأمور محرّمة، ومنها مكروهة إلى آخره، والتي أعانه الله سبحانه عليها، وهيّأ له أسبابها تبيّن أنّها فرائض، ترقى إلى الفرائض، فريضة إذا قمت بها أجِرْتَ، وإذا قصّرت فيها عُوتبتَ وعُوقبتَ -نعوذ بالله تبارك وتعالى- فهذه محطة يجب أيضاً أنْ نتزوّد منها الكثير والكثير.

بعد ذلك مثلاً تقف عند زواج الحبيب صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه أهل الذوق والطيب، وهذه مرحلة عظيمة جداً في حياة المسلم، سواء أكان المتزوّج رجلاً أم امرأة؛ لأنّها مرحلة جديدة، فيها قواسم مشتركة مع المرحلة السابقة، ولكن فيها واجبات، وفيها مسؤوليات كبيرة، فكان عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه أجمعين، النموذج الأكمل والأتمّ والمكمّل والمتمِّم لحياة الإنسانية جميعًا، فبُنِيَ هذا المشروع على المحبّة والتوقير، بغضّ النظر عن الحاجات الجسدية، نعم لها نسبة في قلب الذي سيُعلن بعثته صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، ولكن الأعلى أنّ هذا الزوّاج مشروع، لا أعني أنّه مشروع حلال أو حرام، لا، مشروع أي أنّ فيه تفاصيلاً، فيه أحداثاً، فيه مقاصدَ، ربّما كثير من المسلمين يغفلون عن هذا المشروع، ومقاصد هذا المشروع، بسبب ضعف الثقافة عند المسلمين، بسبب انسياقهم مع الأعراف الماشية، ففي يومنا الحاضر يصبح

عمر الولد عشرين سنة، أو واحدا وعشرين سنة، أبواه يفكّران بتزويجه مثلاً، لا أتكلّم عن أيّ يوم بالضبط، وإنّما أقول: ارجع قبل ثلاثين سنة مثلاً، الأب والأم يتكلمون مع الولد، يشجّعونه، وافق الولد أنْ يتزوّج، دون أنْ يفكّر ما هو الزواج؟ ما هي المسؤوليات المترتبة عليه؟ كلّ ما يعرفه هو أنْ يذهب أبوه مع مجموعة رجال لخطبة فتاة، فإذا وافق أهل البنت، يبدأون بعقد الزواج والمهر، إلى آخره، لكن ما هو المطلوب بعد ذلك؟ لا يعلم، أستطيع أنْ أقول: إنّ هذا -قبل ثلاثين، أو أربعين سنة- هذا حال سبعين بالمئة من الناس في هذا المشروع العملاق العظيم، الذي جاءت نصوص في الكتاب الكريم والسنّة المطهّرة ترعاه وتكلؤه، وتسدّد هذا المشروع العظيم.

فالزواج ليس اجتماعَ رجل بامرأة فقط، نعم هذا مقصود، ولكن هناك أهداف كبيرة جداً، قال تعالى:-

{... وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ...} [سورة البقرة: 187]

ماذا كتب الله لكم؟ {مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ} (ما) من ألفاظ العموم، لم يقل ابتغوا الإنجاب مثلاً، لا، {كَتَبَ اللَّهُ} بمعنى شَرَّع، (كَتَبَ) تأتي بمعنى الإخبار عمّا قدّر سبحانه مستقبلاً، (كَتَبَ) تأتي بمعنى فَرَضَ عليكم -كما في قوله جلّ جلاله:-

{... كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ...} [سورة البقرة: 183]

فهناك جوانب لابُدّ من مراعاتها، لأنّك سوف تندم، تقول أنا تزوّجت زواجًا عُرفيًا (لنسمّيه هكذا، هذه ابنة عمّك يجب أنْ تأخذها، فتقول: إذن نتوكّل على الله تعالى، أو هذه البنت في المنطقة أهلها جيّدون، فتقول: إذن نتوكّل على الله جلّ وعلا) هل كان في بالك أنّك ستُنجب أطفالاً؟ وستحتاج إلى امرأة قويّة تستطيع تربيتهم؟

(أنا عن نفسي ما كان في بالي حقيقة، وهذه صفحة من صفحات حياتي أكشفها، حالي كالنّاس الآخرين، هذه بنت، إذن نتوكّل على الله تعالى) هذا غير كافٍ إخواني وأحبابي، ينبغي أنْ نقف في هدايات هذه المحطة العظيمة، حتى بعد ذلك الذي ينوي أنْ يتزوّج، أو الذي عنده ولد يريد تزويجه، أو بنت يريد تزويجها، لابُدّ أيّها الكرام أنْ ننظر إلى هذه الجوانب، فالرسول الأعظم صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم بنقاء فطرته وصفائها رأى أنّ زواجه من السيّدة خديجة الكبرى رضي الله تعالى عنها يحقِّق أهداف هذا المشروع، وهو لا يزال لم يُعلن بعد عن نبوته عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام، لماذا؟ لأنّه طاقة بالوفاء، طاقة بالحب، طاقة بالمودّة، بل هو ينبوعها الوحيد الأتمّ الأعظم، والبقيّة كلهم دونه وأقلّ منه، هو الرأس في كلّ هذه الصفات عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه المكرمين، قال جلّ جلاله:-

{وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [سورة القلم: 4]

وأروي لكم عن سيّدي حضرة الشيخ عبد الله طيّب الله تعالى روحه وذكره وثراه، قال في قوله جلّ وعلا:-

{وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [سورة القلم: 4]

أي هو أعلى من الخلق العظيم، وهو الذي يقود الخلق العظيم، وليس يقوده الخلق العظيم، وهناك فرق بين القائد والمَقُوْد، أي هو الذي يسيّر الأخلاق إلى حيث رقيها، وإلى حيث علوها صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، كما تقول: فلان على الفرس، أي: هو مَنْ يقود الفرس، وليس الفرس تقوده.

{وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [سورة القلم: 4]

مع أنّ الخلق عظيم ولكن أنت عليه، ولست متّبعًا للخلق العظيم، وليس تابعًا للخلق العظيم صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم.

{وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [سورة القلم: 4]

من العلو، ودائما العلو من مقتضياته: القيادة، يعني أنت تقود الأخلاق صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم.

إذن رأى في هذا المشروع محبّة ومودّة، ورحمة، وسكنًا، وهذه كلّها جاءت في القرآن الكريم في الزواج، إضافة إلى هذا الجانب المادّي، بعض المفسرين يقولونها صراحة في قوله سبحانه بعد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم:-

{وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى} [سورة الضحى: 8].

فأغناه بمال السيّدة خديجة -رضي الله تعالى عنها- يا سلام! يا سلام! يا سلام! أين هنّ نساؤنا المتمكّنات؟ أين هنّ النساء اللواتي بارك الله تعالى لهنّ في أرزاقهنّ؟ أين الأُسَر التي عندها بنات متمكّنات يذهبوا إلى الشاب الفقير الذي ليس عنده قدرة مادية على الزواج يقولون له: تعالَ على العين والرأس، وبحكمة وبدون أي إذلال، وبتكريم وبتقدير؟ حتّى يزاوجوا بين القدرات، فالرسول الأعظم عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه أجمعين، يمثّل القمّة، بل هو ويقود القمم كلّها، القمّة في المودّة والرحمة والعطف، وإنشاء الأسرة، وتربية الجيل، وتربية الأمّة، والقيادة إلى آخره، القمّة في كلّ هذا، ولكن الدنيا، ولأنّها لا تساوي شيئًا عند الله سبحانه، وهذا من معاني: الدنيا تأتي راغمه للصادقين والمخلصين، الذين همّهم الآخرة:-

(مَنْ كَانَ هَمُّهُ الْآخِرَةَ، أَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ) الإمام أحمد رحمه الله تعالى.

وهنا لابُدّ أنْ نقف وقفة المتأمّل المتدبّر والمتعمّق، ومرّة أخرى أؤكّد عليكم أحبابي، ليس هذا للترف الفكري، ولا لأنْ تكتب مقالة في جريدة أو مجلّة، ولا أنْ تخرج في حلقة، لا بأس أنْ تُعلّم، ولكن قبل ذلك لابُدّ من التطبيق، كثير منّا آباء وعندنا أبناء وبنات فلابُدّ أنْ يخطِّطوا، لابُدّ أنْ يفكّروا؛ لا أنْ نبقى عبيداً للأعراف، (والله هذا عيب، وهذا ما يصير، وهذا فقير، كيف أعطيه ابنتي؟! نحن بيت فلان، يضرب بنا المَثل بالتجارات والمؤسسات والشركات، نزوّج ابنتنا من هذا راعي الغنم؟!) فهذا يعني أنّنا نزلنا في حضيض الدنيا -نعوذ بالله تعالى- نعم، مع احترامنا لِمَا ورد في الفقه الإسلامي في موضوع الكفاءة، لكن هذا في الأحوال الاعتيادية، ولكن الآن كلّ أحوالنا غير اعتيادية، ماذا يفعل المسكين؟ ذهب ودرس الطبّ حتى تَعِبَ بصرُهُ، ولم يجد وظيفة فماذا يفعل؟ يعني لا أزوّجه ابنتي لأنّني متمكّن، ماذا يفعل المسكين، يخرج ويسعى على رزقه على باب الله جلّ في علاه، ولكن التجوّل ممنوع، لا يستطيع الخروج، فماذا يفعل؟ ما المانع إذا أكل لقمة معي؟ إذن ماذا فهمنا من الإسلام ونحن ما زلنا مقيّدين بهذه الأعراف الفاسدة الباطلة؟!

إذن بداية هذه المرحلة من ولادته صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم إلى قبيل تشريفه إلى غار حراء بستة أشهر تقريباً، هذه المرحلة فيها هدايات كثيرة جداً، أرجو أنْ تقرأوا عن هذه المرحلة، تقفوا عند هذه المحطّات، وتتزوّدوا منها بالوقود النافع في إكمال شخصياتكم، والاستعانة بهداياتها في تربية الأجيال التي تحت أيديكم، سواء أكانوا من المصلّين، أم من الذرية، أم ممّن تلتقون بهم.

هذه المرحلة من حياة الحبيب صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، لا تخلو من الجانب الرّوحاني والارتباط بالخالق سبحانه، ولكن الجانب الأبرز فيها المعالم التي يعتبرها النّاس مادّية، مثل: العمل، التجارة، المشاركة في الحرب (حرب الفجار)، والاشتراك في المؤتمرات (حلف الفضول) إلى آخره، هذه الجوانب التي نستطيع أنْ نقول إنّها الأوضح والأكثر تألّقًا من الجانب الغيبي، من جانب علاقته بربّه جلّ وعلا في لطائف حياته الشريفة مع أنّها موجودة على أتمّ وجه أيضاً، ولكن الأبرز فيها (في هذه المرحلة) هو الجانب المادّي، لماذا؟ لأنّنا نعيش في مرحلة حياتِنَا الآن، مرحلة الحياة الدنيوية، ولابدّ من الالتفات إلى تعمير الدنيا، فلابُدّ من زواج، لابُدّ من عمل تجاري، وإنْ لم نستطع الحصول على عمل تجاري، فأقلّ من ذلك، حتّى لو كان في رعي الغنم، وهو ليس من قديم الزمان، وإنّما رعي الغنم بمعنى المهنة التي يعتبرها النّاس أبسط وظيفة، وأفقر شيء، حتّى أنّ النّاس كانوا يتنزّهون عنها، لذلك جعل الله عزّ وجلّ كلّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يَرعون الغنم، لتصحيح مفهوم النّاس بأنّ العمل شريف سواء كان تجارة أو كان رعيَ غنمٍ، فقال عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه أجمعين:-

(مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ وَقَدْ رَعَى غَنَماً) الإمام مالك رحمه الله عزّ وجلّ.

عليهم الصلاة والتسليم، فلمّا سمعوا ذلك قالوا:-

حتّى أنت يا رسول الله؟ لأنّه قال (مَا مِنْ نَبِيٍّ) وهم عَرَب، وأهل الفصاحة فيعلمون أنّ (ما) تفيد العموم، يعني تعمّ الكلّ، فأرادوا أنْ يتثبّتوا: حتّى أنت؟ فقال عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام: نعم، أو كما قال.

لكنّ الجانب الروحاني بارز في صفاته العظيمة الجليلة، كالرحمة والمودة، فكان يلتقم ثدي السيّدة حليمة رضي الله تعالى عنها الأيمن ويترك الأيسر لأخيه، شُقّ صدره الشريف وهو في مرابع السيّدة حليمة السعدية رضى الله تعالى عنها وعنكم، وهذه الأقوال يتلاقفوها: ظهر نور أضاء البيت الحرام، والذي رأوه أضاءت له قصور بُصْرَى من بلاد الشام بالنسبة للسيدة آمنة رضي الله تعالى عنها ورحمنا الله تبارك وتعالى ببركاتها.

لم يسجد لصنم قط، إنكاره صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، القلبي (على الأقلّ) لعبادة الأوثان والأصنام.

ولا أريد أنْ أذكر تفاصيلاً أنتم سادة تعلمونها، ولكنّها مشاورة كما ذكرتها من قبل وسمّيتها، واجعلوا عنوانها مشاورة، لا أريدها محاضرة أو محاورة، وإنّما هي مشاورة، تأدّبًا لِمَا وردَ في القرآن الكريم:-

{... وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ...} [سورة الشورى: 38]

فهذه المرحلة هداياتها كثيرة كما ذكرت، تشرّفنا ببعض هذه الهدايات، نسأل الله تعالى أنْ يهدي بها قلوبنا، ويقوّم بها سلوكنا، ويرقّي بها حياتنا.

واستودعكم الله العظيم الذي لا تضيع ودائعه.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.